المماليك، صداع في رأس الباشا

وفي أوائل سنة ١٨٠٦ يستدعي محمد علي باشا اثنين من كبار القادة الألبان المقربين منه، وهما حسن باشا وأخيه عابدين بك، ويحيط محمد علي هذا الاجتماع بسرية تامة، فلا يحضر سوى القائدين وولديه إبراهيم وطوسون، وبالطبع كاتم أسراره الأمين محمد بك لاظ الذي كعادته يتابع الحديث باهتمام بالغ، ويبدأ محمد علي الحديث قائلًا:

– لقد حان الوقت كي تتوجها إلى الصعيد لسحق المماليك، ويجب أن تعلموا مواقع توزيع قواتهم هناك، وهو ما سأخبركم به الآن.

ويندهش لاظ كعادته من كلام الباشا، فقد كان يتوقع أن يطلب من القائدين إرسال عناصر استطلاع للتعرف على توزيع قوات بكوات المماليك في الصعيد، فإذا به يقول إنه سيخبرهم بهذه المعلومات بنفسه، فقال حسن باشا:

– نحن على أتم الاستعداد للقتال، وننتظر أوامركم..

فقال محمد علي باشا:

– اسمعاني جيدًا، يحتل الألفي وقواته الفيوم، وسليمان بك ومعه ثلاثة من أتباعه البكوات يرابطون بجنودهم شمالي أسيوط، وعثمان بك حسن

يرابط في إسنا، أما إبراهيم بك الكبير وعثمان بك البرديسي وأتباعهما، فيحتلون شاطئ النيل بين أسيوط والمنيا.

- إذن سيكون الألفي أول من سنقاتله عند زحفنا بالجيش!

- نعم، واحذروا منه؛ فإنه ليس خصمًا هينًا، فهو دائم المراوغة والمناورة بقواته.

- لا تقلق يا أفندينا، سنقابله بما يستحقه..

كان الباشا يتمنى هزيمة الألفي بشكل خاص، ولكنه يعرف قدراته جيدًا. ويتم إعداد الجيش والتحرك بمجرد من الانتهاء من حشده، ويتابع محمد علي القتال بعد زحف الجيش لتنفيذ المهام المكلف بها، وتحدث أول مفاجأة لحسن باشا في أثناء انحداره بقواته إلى النيل جنوبًا، إذ لم يكد يجتاز الجيزة، حتى اصطدم بقوات الألفي الذي ترك الفيوم وجاء قاصدًا الوجه البحري، أما المفاجأة الثانية، فهو حجم القوات التي تحت قيادة الألفي، فهي أكبر بكثير مما يعرفه حسن باشا، أما الذي لا يعرفه حسن باشا، أن الألفي قد حشد تحت لوائه في الفيوم قبل مغادرتها عدة آلاف من البدو، ليناجز بهم قوات محمد علي، ووقعت المعركة بالفعل، وهزم الألفي حسن باشا هزيمة نكراء، مما اضطره للانسحاب بقواته وتحرك جنوبًا إلى أن وصل بني سويف ومكث بها خوفًا من الصدام مرة أخرى مع الألفي. وعندما وصلت هذه الأخبار لمحمد علي، انزعج كثيرًا وأخذ يفكر في كيفية القضاء

على عدوه اللدود محمد بك الألفي المدعوم من الإنجليز، والذي لديه قدرة عجيبة على حشد القوات، أما الألفي فقد تابع زحفه إلى الجيزة ومنها سار شمالًا إلى البحيرة. وعندما علم إبراهيم بك والبرديسي بهزيمة جيش محمد علي، تقدموا شمالًا وحاصروا المنيا، وكانت بها حامية من جنود محمد علي، وكان موقع المنيا عظيم الخطر، فأمدها حسن باشا بنجدة تحت قيادة أخيه عابدين بك، فجاءتها وشدت أزر الحامية، ووقفت الحرب عند هذا الحد، إذ واجه محمد علي مشكلة خطيرة كادت تقلب عرشه..